

# الأديب و المفكر الراحل رمضان عبد الرحمن لاوند



الإنسان العربي الجديد



## الشريعة التي جعلنا الله عليها

إذا صح أن العبقريّة العربيّة في جوهرها هي عبقريّة دينية.

وإذا صح أن تاريخ المواقف الكبرى عند العرب على امتداد عشرات القرون هو تاريخ المواقف النبوية.

وإذا صح أن النبوات وهي من الله سبحانه وتعالى.

وإذا صح أخيراً أن الله سبحانه وتعالى قد أعلن في كتابه الكريم شهادته في الأمة التي هي الأمة العربيّة المسلمة، في قوله عز من قائل: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " ..

وفي قوله أيضاً: " كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ " ..

ولما كانت كل الإشارات التي أثبتناها في بداية هذا الحديث إليكم هي إشارات صحيحة كما ذكرنا ذلك في غير هذه المناسبة فمن الطبيعي جداً أن نتساءل عن سر الفشل الذي سجله الإنسان العربي بعد سلسلة من الانتصارات حقق بها في أشخاص فريق من أجداده الأولين ما لا يزال يثير الدهشة والعجب في نفوس الناس أجمعين.

لماذا فشل الإنسان العربي المسلم في تحقيق المزيد من الانتصارات؟ ولماذا كانت النكسة التي لا تحتاج إلى تسليط الأضواء عليها وكلنا منها على مثل اليقين؟

أين هي عبقريتنا الدينية؟

لم تعد هذه العبقريّة صالحة للقيام بمهمتها الطبيعيّة التي هي الاستجابة لتحديات العالم الخارجي؟ هل فقدت محتواها ولم تعد صالحة لقيادة البشرية وطرح الحلول المناسبة لمعضلات الإنسان المعاصر؟

وما الذي تغير في طبائع البشر لتبدو المواقف النبوية التاريخية والرؤى الواضحة التي رافقتها شاعت بها فيها  
المعرف والهداية والقوة؟

هل تجاوز البشر مرحلة النبوات فلم يعودوا في حاجة إلى تعاليمها ولم يعودوا يستشعرون الرغبة في الاستعانة  
بالوحي السماوي الذي ميزها بما كانت تمتاز به من قدرات قيادية وتعليمية؟

وأخيراً هل أصبحت شهادة الله سبحانه وتعالى في أمة العرب الداخلة في الإسلام والحاملة لواء القرآن شيئاً  
على هامش التاريخ وظاهرة من الظواهر الناوسية يتدارسها علماء الآثار والباحثون عن الحفريات القديمة في  
الأرض أو في ذاكرة الناس؟

ما الذي حدث حتى تغيرت المقاييس والأبعاد، فأصبح الغرب شرقاً واليمين يساراً والذي هو أدنى خيراً والعكس  
بالعكس؟

هذه الأسئلة حريّ بالإنسان العربي الذي اعتصرته أحداث هذا القرن العجيب وزحمتها بالأزمات يأخذ بعضها  
برقاب بعض وضرسته النوائب يخرج من كل منها وهو منهوك القوى مرهق النفس متوتر الأعصاب.. حري بهذا  
الإنسان أن يرددها ويسعى إلى الجواب عنها ليعين موطىء قدميه وليكتشف أبعاد الدنيا من حوله.

فما هي الإجابات التي يمكن أن يجدها؟

الواقع أننا نحن العرب اليوم أحوج ما نكون إلى تعيين هذه الإجابات؟

والحاجة هذه هي من العنف والإلحاح بحيث نكاد نشعر أن أملنا الوحيد في الخارج من الأزمات المتعاقبة التي  
تقصف بنا من كل جانب هو في تحقيقها.

ونحن على مثل اليقين من أن الإجابات هي من البساطة والوضوح بحيث أننا لم نكتشفها حتى اليوم. إذ كلما  
كان الجواب ألصق بنا كان اكتشافه أشد استعصاء علينا. إن عقولنا وعواطفنا تنطلق بعيداً فلا ندرك أن الإجابة  
الصحيحة هي في متناول يدها. وأنها منها على قاب قوسين أو أدنى.

قلنا في الحلقة السابقة أن الإنسان العربي يبحث عن ذاته. والواقع أنه لم يكتشف هذه الذات حق اليوم رغم  
أنها لصيقة به ترافقه في حله وترحاله في نومه ويقظته في جده ولهوه. إنها هنا بين ضلوعه في ميكانيكية العقل  
ودفقات الروح عبر أنفاسه المتصاعدة.

ويبدو لنا أن السبيل الوحيد إلى اكتشاف هذه الذات هي سبيل الفشل الذي سجله أكثر من مرة منذ التقائه  
لحضارة الإنسان الغربي ومنذ كفرانه بنفسه وتراثه وأصالته الشخصية ومحاولته العنيدة في أن يتبنى مناهج غيره  
وأسلوب عيشه ومثله العليا وأن يزين بها رفوف المكاتب ولغته التي يتكلم ويكتب ومدارسه التي يعد بها أجياله  
الطالعة والشريعة التي ينظم بها حياته. يبدو لنا أن هذا الإنسان العربي لن يخرج من غفلته منقود نفسه إليه

وتستضيء روحه بالحقيقة ما لم يكوى بنار الخيبة وما لم تتعثر به خطواته وهو يقلد الغرباء في مشيتهم وتفكيرهم وأسلوب حياتهم.

وهل هناك ما هو أشد على الإنسان العربي وهو الذي صدرت لمصلحته شهادة خالق السموات والأرض وترك له أجداده أمجاد انتصارات مذهلة مدهشة من أن تعجزه عصابات من لممات البشر وأن يكون حصاد السنين بعد العرق والجهد وسهر الليالي أن تسقط فوق كاهله ائقال مئات الوف جديدة من النازحين مع ما يرافق هذه الأتقال من مزيد رهق وأعناق وضياع؟

ومع ذلك فهناك حقيقة أولية نحن بها مؤمنون. نجد لها في التاريخ الأسانيد المثبتة. هذه الحقيقة هي أن الإنسان ما يزال هو هو لم يتغير منذ بدأ يسجل قصة حياته في عشرات الأديان والفلسفات والحضارات ومئات العلوم. فإذا كان للإنسان العربي القديم ثم عقبه الفشل فلأن للنصر كما للفشل أخلاقه وفلسفته ومنهجه وشريعته.

إن الذي تغير هو الإنسان الذي انتصر ثم فشل. أما جوهر الإنسانية فلا يمكن أن يتغير أبداً. انتصر الإنسان العربي قديماً حين تفجرت عبقريته الدينية وجعل من مواقف النبوة أسوة له وآمن بما أنزل الله إليه من الوحي وارتفع إلى مستوى الرسالة فصدقت فيه شهادة خالق السموات والأرض.

انتصر الإنسان العربي قديماً حين استيقظت فيه رجولة الإيمان وشاعت في روحه جدية الإحساس بالمسؤولية وتصرف على صورة الواثق من النصر وزايله غرور الجاهلية وتفاهة العصبية الصغيرة. ولم يتجاوز حدود ما أنزل الله ووضع له من التعاليم والشرائع.

أما إنسان اليوم فقد صور له الوهم وهو الذي زيلته صلابة الإرادة. والرغبة في العمل والثقة بما عنده ونسي أن النهضة الحقيقية تبدأ من ذات نفسه، لقد صور له الوهم أن خطة النعمة في حماية نفسها من الصياد كافية لحمايته من الأخطار الخارجية والداخلية.

إنه حتى وقت قريب كان يجبن عن أن يقول الحقيقة لنفسه. فإذا وخزه ضميره وبدت أمامه بشاعة الواقع الذي يتقلب فيه اتخذ خطة المدمن على المخدرات فراح يغرق صرخات الاحتجاج في أعماق ذاته والتأنيب الصامت الذي يحرك في ضميره باصطناع المعارك السهلة وخلق الضجيج الخارجي وتمويه حقيقته بإبراز واجهات ضخمة بقصد إخفاء الهزال فيما وراء هذه الواجهة.

واجتاحت هذا الإنسان العربي موجة هستيرية من مواكب الطبول والأهازيج ترتفع أصواتها في دأب وعنف ظنا منه أن هذه الأصوات المرتفعة قد تغير الواقع. يفعل ذلك على طريقة السحرة عند الشعوب البدائية حين ينظمون حفلات الرقص العنيف ويحرقون البخور ويلبسون الأقنعة بتصاويرها المخيفة البشعة.. لطرده الأمراض

المستعصية واخراج الشياطين. ثم لا تمضي أيام معدودة حتى يذهب وهم السحر السخيف وينهار المريض ويأتي الموت ليختطفه.

وكما يصير الساحر على طريقته الفاشلة العاجزة في مواجهة أخطار الأمراض إصرار الجاهل المكابر فإن الإنسان العربي الذي واجه المحنة تلو المحنة قد أصر على الاستعانة بسلاح الطبول والأهازيج واصطناع المعارك السهلة. وعندما لا يجد مفرّاً من الاعتراف بهزيمته يبادر إلى اصطناع طريقة البدائيين أيضاً في تقديم القرابين البشرية ويقنع نفسه بأن إراقة الدم هي أقرب طريق إلى ترضية الأصنام التي خلقها له وهمه.. والفرق الوحيد بينه وبين البدائيين أن أصنامه ألفاظ ضخمة وشعارات في يافطات بينما أصنام البدائيين شخوص من حجر أو شجر أو تراب. ونعود إلى التساؤل مرة أخرى، كيف الخروج من المأزق الذي وجد فيه الإنسان العربي نفسه بعد سلسلة من المحاولات لاستعادة سيادته الحقيقية وحرية الناجزة وقدرته على بناء مستقبل مضيء؟

الجواب فيما يبدو لنا هو في انتصار الإنسان العربي على الخوف وفي جرأته على العودة إلى مصادر عبقرية الحقيقية وفي إحيائه لتراث آباءه وأجداده. وفي العمل بالمنهج الذي وضعه له معلمه الأول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. إنه في تجنب مواكب التهريج وهواية إرسال الضجيج والصمت. إنه في التواضع إلى جانب الله وفي دراسة الأسباب الحقيقية لانتصار شعب من القبائل أيام الجاهلية الأولى ثم في التصميم على الخروج من الجاهلية المعاصرة إلى دعوة الإيمان وبعبارة أخرى أنه في أن يكون الإنسان العربي هو نفسه. لا يتنكر لها ولا يتجاهل مسؤولياته أمامها ولا يخجل من الاعتراف بجهلته وجاهليته. إنه في ألا يركب رأسه فلا ينزلق في التبعية لأي فريق في الدنيا. أن يكون القرآن منهجه بحق.. وأن تكون رسالة آباءه كرسالته بصدق وأن يستظل بظل عبقرية القومية التاريخية. التي يجد ينبوعها في الإسلام. أن يخرج إلى الدنيا وهو مؤمن أنه على حق. وأن النصر بيد الله. وأن الشريعة شريعة الله. وأن الأدب هو الذي أدبه به الله. فلا يكون نصف مؤمن ونصف مقاتل ونصف مفكر ونصف إنسان.

إذا عمل بشريعة الله فلم يتبع أهواء الذين لا يعلمون.

إذا مضى منافحاً بصراحة عن رسالة الله مقاتلاً لا ترده عقبة واثقاً أن النصر من عند الله يؤتاه من يشاء. لا يروعه ما عند أعدائه ولا يقعد به الفشل عن إعادة الكرة دون أن يفقد ذرة من إيمانه يفتحم على الموت حدوده. وينتهك كل ستر غير ستر الله لا يبالي على أي جنب كان مصرعه.

إذا عمل الإنسان العربي في ضوء هذه التوصيات فإنه بالغ غرضه محقق غايته منتصر على عدوه.

إنّ الإنسان العربي الجديد هو ذاك الذي يعيش في الخطر باستمرار لأنه يعلم أنّ الرزق والحياة والموت والأقدار بيد الله. وهو نفسه الذي يفجر عبقريته الدينية التي سبق الحديث عنها ثم ينطلق بعد ذلك في الطريق الذي يحرره من الشعور بالمهانة لا أمام عصابات اليهود وحسب بل أمام كل من سوى الله. وسنتبيّن في حلقات قادمة وجوهاً من عظمة الدعوة التي تدعو الإنسان العربي إليها وسيرى هو شخصياً في هذه الوجوه ما يفردّه عن إنسان الدنيا كلها بالهداية والقوة والطمأنينة. فإلى حلقة قادمة إن شاء الله.